الوجود بين هنري لويس برغسون وتشارلز داروين

حفصاء اقبوش
طالبة باحثة بسلك الدكتوراه، تخصص الفلسفة المعاصرة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة ابن طفيل–القنيطرة– المغرب
د. أحمد الفرحان
أستاذ التعليم العالي بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية،
جامعة ابن طفيل–القنيطرة– المغرب

ملخص

يهدف هذا البحث إلى مناقشة مفهوم الوجود من زاويتين اثنتين: زاوية فلسفية، وأخرى علمية، مركزين على نموذجين هما: لويس برغسون، وتشارلز داروين؛ اللذين استطاعا الإسهام، من خلال أبحاثهما وأطروحاتهما، في تعميق أسئلة هذه القضية، وإثارتها بشكل مختلف.

وقد تعمق البحث في هذا المفهوم ليلامس مفاهيم أخرى أشد ارتباطا بحقيقة الوجود ألا وهي: الروح، واللاوجود، وحقيقة الكون وما إلى ذلك. لقد ظهر أكثر من اتجاه ومذهب في تفسير الوجود؛ إذ سعت إلى تفسيره باعتماد مبدأ واحد، ماديا كان أم روحيا، أما بعض هذه المذاهب، ففسرته انطلاقا من ثنائيات متباينة، فيما اتخذت مذاهب فلسفية أخرى مبدأ التعدد والكثرة أساسا في تفسير الوجود وتحليله.

وسيظل أمر الوجود كقضية فلسفية وعلمية مطروحة؛ لأنها فتحت صراعا بين المادية والروحية، بين التفكير الفلسفي، والتفكير العلمي الصارم، وبين فكرة الزمان والمكان. في هذا السياق، جاء هذا البحث ليحاول الإجابة عن هذه الإشكالية: كيف نظر كلٌّ من الفلسفة والعلم في الوجود؟

الكلمات المفاتيح: الوجود، المادية، الفلسفة، العلم، الروح.

Summary

This research aims to discuss the concept of esidtence from two angles : philosophical, scientific, focusing on two models: Louis Bergson and Charles Darwin; who, through their research and thesis, have been able to contribute to deepening and raising differently the questions of this issue.

Research into this concept has deepened into other concepts more closely linked to the reality of existence: soul, non-existence, the truth of the universe, etc. More than one trend and doctrine has emerged in the interpretation of existence; It sought to interpret it by adopting one principale, materially or spiritually, some of which has been interpreted on the basis of diverse bilaterals, while others have taken the principale of multilateralism and its fundamental interpretation and analysis.

Existence as a philosophical and scientific issue will remain on the table; Because it opened a struggle between materialism and spirituality, between philosophical thinking, strict scientific thinkind, and this research came to try to answer this context, this research came to try to answer this problem: how did both philosophy and science consider existence?

Keywords : Presence, materizlism, philosophy, science, spirit.

مقدمة

يمكن فهمُ معنى الوجود من خلال الاستفسار عن حقيقة طبيعة الوجود الإنساني بشكل عام. والحقيقة أن تباين مواقف الفلاسفة والمختصين حول ماهية الوجود، أنتج إشكالات وصراعات كثيرة منها المادية والروحية، أثمرت جُلَّ أنواع الفهم والبحث عن تحديد للوجود الإنساني خاصة، والوجود بشكل عام.

إن الصراع بين المادية والروحية قائم وممتد في شتى تجلياته في قضايا وجودية عميقة. وقد نتج عن هذا الصراع بحث وتفكير جديد وعميق في نوع المعرفة، وطبيعة الحياة من خلال إدراكها بعالم الشعور. هذا العالم، الذي يمثل حقيقة الإنسان، ويجعله في اتصال تام بالحقيقة المتجلية في التفكير في أصل وجوده، ووجود هذا الكون.

قد يكون إدراك الأشياء الظاهرة بالأبعاد الظاهرية لهذا الوجود وبعيدة عن المعنى الفعلي للوجود؛ بحيث إن هذا الأخير مُتَضَمَّنٌ في ثنايا التجربة الشعورية؛ ذلك أن الإحساسات ومختلف الآراء وأنماط الشعور المتعددة هي تقسيمات الوجود الفعلية أو لنقل هي الوجود بعينه، ومن ثم صار ممكنا التعرف على الحياة بكونها ظاهرة شعورية.

تحصيلا لما سبق، جاز لنا القول بكون فكرة أصل الوجود واستمراريته تطرح العديد من **الإشكالات والتساؤلات حول التداخل الحاصل بين المادة والشعور، وتجليات ذلك، ونذكر منها على سبيل الذكر لا الحصر:**

ما أصل الوجود؟

هل الوجود الذي نحياه مادي أم روحي خالص، أم هو مزيج بينهما ؟

هل الوجود على تعدده وكثرته صادر عن مبدأ واحد ؟

وما حقيقة عالم الروح؟

تلكم، إذن، هي أبرز الإشكالات التي تحرك بحثنا وتؤطره، ونسعى إلى محاولة التأسيس لإجابات ممكنة من خلال نموذجَيْ برجسون وداروين.

الوجود في الفلسفة

–نموذج هنري برجسون–

ننطلق في هذا المحور، للإجابة عن هذه التساؤلات والتأسيس لمشروعيتها، من كونِ عالم الروح هو عالم النفس، والنفس أيضا موجودة فينا بالقوة لا بالفعل. ورغم تباين تفسيراتنا وتأويلاتنا للظواهر القادمة من هذا العالم بَيْدَ أنها تحمل ذات الطبيعة، على نقيض مميزات عالم الظواهر المتميز بعدم ثبات حالاته الوجودية، تبدلا دائما كائنا بفعل التجربة ومتكيفا وفق تبدلات أخرى ملازمة بنظام عقلي ما.

إن أية محاولة للبحث في أصل الوجود والحياة لدى برغسون وجب انطلاقها من التركيز بنوع من التمايز بين المادي والروحي. الحقيقة أن هذه الإشكالية قابلة لتوليد عدد كبيرة من التساؤلات المتناسلة – كما ذكرنا– من رحم الإشكالية. وإن الحدود بين الصراع الروحاني والمادي ممتدة ومتداخلة مع مواضيع أخرى سواءً تعلقت بالعلم أو الفلسفة.

إن هذه الفكرة الأخيرة هي التي نسبَتْ وتناسلت منها فلسفة برغسون ورؤيته حول أصل الوجود والزمان. ومنه، فسؤال الأصل لديه لصيق بمقاربة المعطيات الشعورية، التي تعد من أولويات العلم.

تأسيسا على ما سبق، فقد تمكن برغسون من طرح سؤال أصل الوجود، والبحث فيه من خلال تبديل السياق العام، والرؤية الموجهة للعقل، ودوره في إدراك كنه الأشياء من باطنها وظاهرها، نحو معرفة حدسية تتوخى تبني مفهوم الأنا العميق ليكون الحامل الفعلي للمعاني الفعلية للوجود. فهو عند برغسون القوة المحركة للحياة بكونها تواصلا زمنيا مستمرا.

ينطلق برغسون من عبارة "أنا أحيا في الزمان المستمر إذن أنا موجود"، خلافا لكوجيطو ديكارت وهوسرل المؤسسة على إثبات الوجود بالتفكير. فالزمان بالنسبة لبرغسون يعد المشكلة التي تستوجب البحث؛ قصد تحديد حقيقة وجودنا كذوات إنسانية متصلة بالوجود العيني الخارجي. ومن ثم، كانت فلسفته قائمة على البحث في مفهوم الزمان وإدراك حقيقته.

ولم يكُنْ برغسون لِيُنْكِرَ دور العلم وقيمته المركزية في تحديد أصل الأشياء وطبيعتها النهائية حيث قال: "لو اجتمعت نظرية المعرفة ونظرية الحياة، وابتغتا طريقا أقرب إلى التجربة، ففي وسعهما أن تجدا حلا لأكبر المشكلات التي تثيرها الفلسفة. ولاستطاعتا أن تبينا لنا كيف نشأ العقل، ومن ثمة كيف تكونت المادة"[1].

إن موقف برغسون، هنا، مبني على رؤية نقدية عميقة، وتأمل فلسفي حاذقٍ؛ لأنه استوعب أن بلوغ حقيقة الأشياء، وفكّ أكبر ألغاز الكون، والوصول إلى حلٍّ للمشكلات التي تثيرها الفلسفة لن يتأتى إلا ربط نظرية الحياة بالعلم؛ أي لا بد من تفسير كثير من الظواهر وقراءتها قراءة علمية وحياتية.

حقيقة أصل الوجود : تداخل المادي والروحاني.

غالبا ما ترتبط فكرة الوجود بأفكار تختلف عنها تارة، وتتداخل معها حدّ الاختلاط والتشابك تارة أخرى. ونذكر من هذه الأفكار –على سبيل التمثيل لا الحصر– فكرة الزمان والمكان، المادة والروح... وينطلق هذا التشابه والاختلاف من نَصُبّ كل اهتمامنا وقتَ دراسة الوجود إلى ذاك الوجود الجزئي أي الوجود المتحرك حركة محسوسة " فنحن لا نعد المشاعر والإحساسات والأفكار إلا بعد أن تمثلها وحدات متشابهة تملأ محلات مختلفة من المكان"[2] .

لقد ظهر أكثر من اتجاه ومذهب في تفسير الوجود؛ إذ سعت إلى تفسيره باعتماد مبدأ واحد، ماديا كان أم روحيا، أما بعض هذه المذاهب، ففسرته انطلاقا من ثنائيات متباينة، فيما اتخذت مذاهب فلسفية أخرى مبدأ التعدد والكثرة أساسا في تفسير الوجود وتحليله.

شكلت البدايات الأولى للفلسفة اللبنة الأساسية لتشكل الواحدية؛ التي تمثل بدورها جوهر الوجود، بل قل الوجود بذاته. ولم يكتفِ هذا التفسير الواحدي ببدايات الفلسفة، وإنما امتد إلى حدود الفلسفات المعاصرة، وعُدّت الواحدية الروحية واحدة من الفلسفات اللاتي حاولت تفسير الوجود انطلاقا من الروح كأساس للوجود والعالم.

إن انشغال الفلسفة الواحدية في تفسير الوجود لم يمنع، في تاريخ الفلسفة، ظهورَ اتجاهات أخرى سعت لقراءة وتفسير الوجود انطلاقا من مبدأين؛ حيث ظهر ما يطلق عليه بصراع الثنائيات الوجودية من قبِيل: المادة والروح، النفس والجسد، الزمان والمكان، الذات والموضوع.

إضافة إلى ما سبق، فقد فسّرَ الوجودَ أيضا عن طريق عددٍ هائلٍ من المبادئ؛ منها القول بالتعدد والكثرة اللامتناهيين، مثلما فعل كُلٌّ من فلسفة ديمقريطس وأبيقور، الذاهبة إلى كونِ تشكل الكون يتم من خلال أعداد لا متناهية من الذرات المادية غير المحدودة من جهة الكيف والكم.

خلافا لهذا التعدد النظري الداعي إلى مواجهة هذا الإشكال ومقارعته، حاول برغسون معالجة قضية الواحد والمتعدد من زاوية ثنائيتي المكان والزمان، غير أنه كما قال جيل دولوز : أنه "لا يتعلق الأمر بالنسبة لبرغسون بمعارضة الواحد بالمتعدد، بل على العكس بتمييز نموذجين من التعددية "[3] ، إذ الكثرة الكيفية التي تميز هذه الفلسفة هي "سمة ما يتضمن عناصر مختلفة قابلة للعد، لكنها غير معدودة بالضرورة"[4] .

وبناءً عليه، فَبرغسون يحيلنا إلى مقاربة موضوع الواحد والمتعدد معتمدا فكرة الزمان بطريقة مباشرة "فالحياة الشعورية قد تتجلى من خلال مظهرين : بحسب المشاهدة المباشرة وانعكاساتها من خلال المكان وبإدراك حالاتنا الشعورية الباطنة، وفي كلتا الحالتين ليس لهذه المعرفة أية علاقة بالكم، بل هي كيفية خالصة "[5].

وفي ذات السياق، يتساءل برغسون: إذا كانت ثنائية الواحد والمتعدد من المسلمات؛ فهل الدافع الحيوي الذي تدركه وتحياه ذواتنا هو واحد أم متعدد ؟

إذا ما حدّدنا الدافع الحيوي بكونه ذاك الشعور القوي، الذي يجعلنا في اتصال دائم مع الحياة ومع استمرارية الزمان، "فمن الواجب أن نقارن الحياة بانطلاقة لأنه ليست هناك صورة مستمدة من العالم المادي تبين لنا فكرة الحياة تبينا أقرب إلى الحقيقة من هذه الصورة "[6].

وانطلاقا من هذا الطرح، سَعى برغسون لدحض نظرية التطور الآلي للموجودات التي صاغها داروين، وإنشاء تصور خاص به تحكمه أطراف عدة منها: الزمان والمكان، الاستمرارية، العلم، المجال الخارجي.. ولذلك فلا مفر من التعريف بهذه النظرية، ومحاولة مقاربة سؤال الأصل لديها.

تحديد طبيعة الوجود من وجهة نظر علمية

-نموذج داروين- (1809- 1882).

تعتبر نظرية التطور الداروينية واحدة من أهم النظريات العلمية التي خلخلت الكثير من المعتقدات الدينية، والمعرفية، والعلمية. فقد استطاعت دحض كل المفاهيم والتصورات التي تؤمن بالإله، ودوره في وجود الكائنات، وحاولت تحطيم دور العقل في تفعيل هذا الوجود وفق هذه العناية. لذلك يمكن عدّها نظرية ساهمت في الثورات العلمية التي عرفتها البشرية بعد ظهورها؛ حيث فتحت أفقا رحبا للبحث والتقصي والمعرفة وباب البحث عن الحقيقة؛ حقيقة الوجود وأصل الإنسان. فهذا الأخير تَوَّاقٌ لمعرفة جذور البشرية، وأسرار الكائنات الحية، وأنظمة حياتها واشتغالها.

تتأسس النظرية الداروينية على عدة افتراضات منها:

- أن كل مرحلة من مراحل التطور أعقبت التي قبلها بطريقة حتمية وأن العوامل الخارجية هي المحددة لنوعية هذه المرحلة؛
- أن أصل الكائنات العضوية كائن واحد ذو خلية واحدة؛
- أن عشوائية الصدف نجحت في تكوين الخلية الحية الأولى، التي كانت منطلق التطور؛
- أن تطور الحياة في الكائنات العضوية يبتدئ من السهولة وعدم التعقيد إلى الدقة والتعقيد، بحيث تتدرج هذه الكائنات من الأبسط إلى الأرقى.
- أن الطبيعة وهبت الأنواع القوية فقط عوامل البقاء والنمو والتكيف مع البيئة لتتدرج في سلم الرقي مما يؤدي إلى تحسن نوعي مستمر ينتج عنه أنواع راقية يتجلى أرقاها في الإنسان.

قد ركزت هذه النظرية على تفسير" تشكل الأنواع بمجرد عمل ميكانيكي يشرف على ظهور عوارض تحقق للأفراد الذين يلائمهم البقاء والتكاثر، وأي تفسير لعملية التطور والارتقاء هذه تتدخل قوة إلهية هي بمثابة تجاوز لقدرة الطبيعة الذاتية على الخلق وإدخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحث، فلكل من العقل والوعي دور في توجيه عملية التفاعل بين الكائن الحي والطبيعة والمتجسد في حالة التطور التلقائي . إذ يقول داروين: "إننا إذ ننظر في الطبيعة، نجد أن التحولات المفيدة للعضويات قد تحدث ويتكرر حدوثها فيها، تتحقق دائما أن الأفراد التي تخصها الطبيعة بتلك التحولات تصبح قادرة دون غيرها على الاحتفاظ بكيانها في التناحر على البقاء (...) وهي سنة طبيعية تدفع النظام العضوي برمته إلى التقدم والارتقاء في فترات الزمان"[7].

يقصد بالتطور، من وجهة نظر داروين، تطور جميع المخلوقات بما فيها الإنسان. فهي كلها آتية من خلية واحدة؛ ومن ثم يكون الكون بكل تعقيداته، ومخلوقاته قد أتت من هذا الشيء البسيط والهين، الذي أعطى هذا التنظيم المثالي والمحكم، والتشابك المعقد. ويعد الإنسان على رأس هذه المخلوقات المقعدة الخِلقة والتكوين، وهو أسمى وأرقى هذه الأنواع على الإطلاق. "وتلك سنة الاحتفاظ بالتحولات المفيدة للعضويات أو بقاء الأصلح منها"[8].

إن هذه الفكرة ما كانت لتبقى حبيسة نظرية التطور البيولوجية، وإنما صارت فكرة فلسفية اجتماعية نادت بالتطور المطلق الذي لا حدود له؛ فهذا **هربرت سبنسر**، على سبيل المثال، استغل النتائج الاجتماعية لنظرية التطور البيولوجي، وأسقطها على التطور الاجتماعي مُقرا بهذا النوع من التقدم في المجتمع وإن بطريقة غير واعية ومباشرة؛ ذلك أن نمو المجتمعات البشرية هو نتيجة نمو طبيعي شأنه شأن الكائن الحي الذي يتوالد ويتناسل، ويكبر، ويتطور، ويموت.

خاتمة

نستنتج، من خلال ما سبق، أن طبيعة الصراع بين المادية والروحية، وبين الفلسفة والعلم نتج عنه تنقيب دقيق، وبحث جديد، وتفكير عميق في طبيعة الوجود والحياة عامة. إن الوجود موضوع فلسفي بالأساس؛ ذلك أن الفلسفة في حد ذاتها عبارة عن دراسة للوجود بما هو موجود. ولذلك فالفلسفة تبحث في الموجودات بشكل كلي ومطلق بعيدا عن الجزئيات. ولتحديد ماهية الوجود، لا بد من مفهوم ثانٍ هو اللاوجود. فالأشياء تعرف بأضدادها ونقائضها. فاللاوجود هو كل عدمي أو سلبي؛ فالسلبي نفي شيء ليس من شأنه أن يوجد كسلب العقل عن النبات والحيوان، وسلب الإحساس عن الحجر؛ فهذا ليس من ماهية هذا ولا ذاك أن يكون حاصلا على العقل. واللاوجود العدمي نفي شيء من شأنه أن يوجد، كسلب حاسة الشم أو السمع عن إنسان.

إن مفهوم الوجود طرح أكثر من سؤال بين الفلاسفة والعلماء. فداروين الذي توقفنا عنده في هذه المقالة، ينطلق من فكرة الأصل، أو سؤال ما أصل الأشياء/ الموجودات؟ فقدم لنا العديد من الفرضيات والمسلمات التي بنى عليها نظريته، والتي يمكن تلخصيها في أن الحياة نشبت من خلية واحدة، فأنتجت أجناسا وموجودات أمكن تصنيفها في خانات عدة أرقاها الكائن البشري.

الهوامش:

[1] – هنري برغسون، التطور المبدع، ترجمة جميل صليبا، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع،1981 ، ص05.

[2] – Henri Bergson, Essai Sur Les Données Immédiates De La Conscience, P.U.F, Paris, 120 Ed, 1967, p64.

[3] – جيل دولوز، البرغسونية، تعريب أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية والنشر للدراسات، بيروت، ط 1، 1979، ص 37.

[4] – أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثاني، منشورات عويدات، بيروت– باريس ، ط1، 1996، ص 846.

Le Vocabulaire Des Philosophes (Philosophie Contemporaine), Elipses Edition Marketing. S. -5 A, 2002, P 24.

[6] – هنري برغسون ، التطور المبدع ، مصدر سابق ، ص 332..

[7] – تشارلز داروين، أصل الأنواع، ترجمة اسماعيل، مظهر، مكتبة النهضة، بيروت، ص 281.

[8] – نفسه، ص 281.